خالد بن الوليد

لا ينام، ولا يترك أحدًا ينام!!

إن أمره لَعجب..!!

هذا الفاتِكُ بالمسلمين يومَ «أُحُد»... والفاتِكُ بأعداء الإسلام بَقيَّة الأيام..!!

أَلَا فلْنأت على قصته من البداية..

ولكن أيَّةُ بِداية..؟؟

إنه هو نفسه، لا يكاد يعرف لحياته بَدءًا إلا ذلك اليوم الذى صافح فيه الرسول مُبَايعًا..

ولو استطاع لَنحَّى عن عمره وحياته، كل ما سبق ذلك اليوم من سنين، وأيام...

فلنبدأ معه إذن من حيث يحب... من تلك اللحظة الباهرة التى خشع فيها قلبه لله، وتلقَّت روحه فيها لمسة من يمين الرحمٰن - وكلتَا يديه يمين - فتفجرت شوقًا إلى دينه، وإلى رسوله، وإلى استشهاد عظيم فى سبيل الحق، ينضو عن كاهِله أوزارَ مُناصرته الباطل فى أيامه الخاليات...

* * *

لقد خلا يومًا إلى نفسه، وأدار خواطره الرشيدة على الدين الجديد الذى تزداد راياته كل يوم تألُّقًا وارتفاعًا، وتمنَّى على الله علاَّم الغيُوب أن يَمُدَّ إليه من الهُدى بسبَب.. والتمعتْ فى فؤاده الذكىّ بشَائر اليقين، فقال:

«واللّهِ لقد استقام المْنسِم،..

«وإن الرجل لرسول..

فَحَتَّى، مَتَى..؟؟

أذهبُ واللّهِ، فَأُسْلم»...

ولْنُصْغِ إليه - رضى الله عنه - يحدثنا عن مَسيرِه المبارك إلى رَسول الله عليه الصلاة والسلام، وعن رحلته من مكة إلى المدينة ليأخذ مكانه فى قافلة المؤمنين:

«.. وَودِدْتُ لو أجد من أُصاحِب، فلقيتُ عثمان بن طلحة، فذكرتُ له الذى أريد فأسرعَ الإجابة، وخرجنا جميعًا فأدْلَجنا سَحَرا.. فلما كنا بالسهل إذا عمرو بن العاص، فقال مرحبًا بالقوم، قلنا: وَبك...

«قال: أين مَسيركُم؟ فأخبرناه، وأخبرَنا أيضًا أنه يريد النبى ليُسلم..

«فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة أول يوم من صفر سنة ثمان..

فلما اطَّلعْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه بالنبوة فردَّ على السلام بوجه طلق، فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق..

«فقال الرسول: قد كنت أرى لك عقلًا رجوتُ ألا يُسْلمك إلا إلى خير..

«وبايعتُ رسول الله وقلت: استغفر لى كل ما أوضَعْتُ فيه من صَدٍّ عن سبيل الله..

«فقال: إن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله..

«قلت: يا رسول الله على ذلك..

«فقال: اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه مِنْ صَدٍّ عن سبيلك..

«وتقدم عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، فأسلما وبايعَا رَسُولَ الله»..

* * *

أرأيتم قوله للرسول: «استغفر لى كل ما أوضعتُ فيه من صَدٍّ عن سبيل الله»..؟؟

إن الذى يضع على هذه العبارة بصره، وبَصيرتَه. سيهتدى إلى فهم صحيح لتلك المواقف التى تشبه الألغاز فى حياة سيف الله وبطل الإسلام...

وعندما نبلغ تلك المواقف فى قصة حياته ستكون هذه العبارة دليلنا لفهمها وتفسيرها...

أما الآن، فمع «خالد» الذى أسلم لِتَوِّه لنرى فارس قريش وصاحب أعنَّة الخيل فيها، لنرى داهيةَ العرب كافة فى دنيا الكرِّ والفَرِّ، يعطى لآلهة آبائه وأمجاد قومه ظهره، ويستقبل مع الرسُول والمسلمين عالمًا جديدًا، كتب الله له أن ينهض تحت راية محمد وكلمة التوحيد..

مع خالد – إذن – وقد أسلم، لنرى من أمره عجبًا... !!!

* * *

أتذكرون نبأ الثلاثة الشهداء أبطال معركة مؤتة..؟؟

لقد كانوا: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة...

لقد كانوا أبطال غزوة «مُؤْتَة» بأرض الشام.. تلك الغزوة التي حشد لها الروم مائتي ألف مقاتل، والتي أبلى المسلمون فيها بلاء منقطع النظير..

وتذكرون العبارة الجليلة الآسية التي نعى بها الرسول صلى الله عليه وسلم قادة المعركة الثلاثة حين قال:

«أخذ الرايةَ «زيد بن حارثة» فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا.

«ثم أخذها «جعفر» فقاتل بها، حتى قُتِلَ شهيدًا...

«ثم أخذها «عبد الله بن رَوَاحَة» فقاتل بها حتى قُتِلَ شهيدًا».

كان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا بقيَّة، ادَّخرناها لمكانها على هذه الصفحات..

هذه البقيَّة هى:

«ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه».

فمن كان هذا البطل..؟؟

لقد كان «خالد بن الوليد»... الذى سارع إلى غزوة «مؤتة» جنديًّا عاديًّا تحت قيادة القواد الثلاثة الذين جعلهم الرسول على الجيش: زيد، وجعفر، وابن رَوَاحَة، والذين استشهدوا بنفس الترتيب على أرض المعركة الضارية...

وبعد سقوط آخر القواد شهيدًا، سارع إلى اللواء «ثابت بن أقرم» فحمله بيمينه ورفعه عاليًا وسط الجيش المسلم حتى لا تُبعثر الفوضى صفوفه..

ولم يكد «ثابت» يحمل الراية حتى توجه بها مسرعًا إلى خالد بن الوليد، قائلا له:

«خذ اللواء يا أبا سُليمان»..

ولم يجد خالد من حقه وهو حديث العهد بالإسلام أن يقود قومًا فيهم الأنصار والمهاجرون الذين سبقوه بالإسلام.

أدب، وتواضع، وعرفان، ومزايا، هو لها أهلٌ وبها جدير..!!

هنالك قال مجيبًا «ثابت بن أقرم»:

«لا.. لا آخُذ اللواء، أنت أحق به.. لك سِن وقد شهدتَ بدرًا»..

وأجابه ثابت: «خُذه، فأنت أدرى بالقتالِ منى، ووالله ما أخذتهُ إلا لك».

ثم نادى فى المسلمين: أترضَوْن إمْرَةَ خالد..؟

قالوا: نعم..

واعتلى العبقرى جواده. ودفع الراية بيمينه إلى الأمام كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح على طريق لاَحِب سيقطعه البطل وَثْبًا. وثبًا.. فى حياة الرسول وبعد مماته؛ حتى تبلغ المقادير بعبقريته الخارقة أمرًا كان مقدورًا..

* * *

وَلِىَ «خالد» إمرة الجيش، بعد أن كان مصير المعركة قد تحدَّد. فضحايا المسلمين كثيرون، وجناحهم مَهيض.. وجيش الروم فى كثرته الساحقة كاسح، ظافر، مُدَمْدِم..

ولم يكن بوسع أية كفاية حربية أن تغير من المصير شيئًا؛ فتجعل المغلوب غالبًا، والغالب مغلوبًا..

وكان العمل الوحيد الذى ينتظر عبقريًّا لكى ينجزه، هو وَقف الخسائر فى جيش الإسلام، والخروج ببقيته سالمة، أى الانسحاب الوقائى الذى يحول دون هلاك بقية القوة المقاتلة على أرض المعركة.

بَيْدَ أنَّ انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان..

ولكن، إذا كان صحيحًا أنه «لا مستحيل على القلب الشجاع» فمن أشجع من خالد قلبًا، ومن أروع عبقريةً وأنفذ بصيرة..؟؟!

هُنالك تقدم سيف الله يرمق أرض القتال الواسعة بعينين كعينى الصقر، ويدير الخُطط فى بديهته بسرعة الضوء.. ويقسم جيشه - والقتال دائر - إلى مجموعات، ثم يكل إلى كل مجموعة بمهامها.. وراح يستعمل فنَّه المعجز ودهاءه البليغ حتى فتح فى صفوف جيش الروم ثغرة فسيحة واسعة، خرج منها جيش المسلمين كله سليمًا معافى، بعد أن نجا بسبب من عبقرية بطل الإسلام من كارثة ماحقة ما كان لها من زوال..!!

وفى هذه المعركة أنعم الرسول على خالد بهذا اللّقب العظيم:

* * *

وتنكُث قُريش عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتحرك المسلمون تحت قيادته لفتح مكة..

وعلى الجناح الأيمن من الجيش، يجعل الرسول خالد بن الوليد أميرًا...

ويدخل «خالد» مكة، واحدًا من قادة الجيش المسلم، والأمة المسلمة، بعد أن شهدته سهولها وجبالها، قائدًا من قواد جيش الوثنية والشرك زمنًا طويلا..

وتخطُر له ذكريات الطفولة، حيث مراتعها الحلوة.. وذكريات الشباب، حيث ملاهيه الصاخبة..

ثم تستجيشه ذكريات الأيام الطويلة التى ضاع فيها عمره قربانًا خاسرًا لأصنام عاجزة كاسدة..

وقبل أن يعضَّ الندم فؤاده ينتفض تحت روعة المشهد وجلاله..

مشهد النور الزاحف على مكة... مشهد المستضعفين الذين لا تزال جسومهم تحمل آثار العذاب والهول، يعودون إلى البلد الذى أخرجوا منه بَغْيًا وعَدْوًا - يعودون إليه على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإسلام الخافقة.. وقد تحوَّل

همسُهم الذي كانوا يتناجَوْن به فى دار الأرقم بالأمس - إلى تكبيرات صادعة رائعة ترجُّ مكة رَجًّا، وتهليلات باهرة ظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كله فى عيد..!!

كيف تمت المعجزة..؟؟

أىّ تفسير لهذا الذى حدث؟

لا شيء... لا شيء إلا هذه الآية التى يرددها الزاحفون الظافرون وسط تهليلاتهم وتكبيراتهم حين ينظر بعضهم إلى بعض فرحين قائلين:

«وَعْدَ الله.. لا يُخلِفُ اللّهُ وَعْدَه»..!!

ويرفع خالد رأسه إلى أعلى، ويرمُق فى إجلال وغبطة وحُبور رايات الإسلام تملأ الأفُق.. فيقول لنفسه:

- أجَلْ.. إنه وعد الله، ولا يُخلف الله وعده..!!

ثم يحنى رأسه شاكرًا نعمة ربه الذى هداه للإسلام وجعله فى يوم الفتح العظيم هذا، واحدًا من الذين يحملون الإسلام إلى مكة.. وليس من الذين سيحملهم الفتح على الإسلام..

* * *

ويظل «خالد» إلى جانب رسول الله، واضعًا كفاياته المتفوقة فى خدمة الدين الذى آمن به من كل يقينه، ونذرَ له كل حياته.

وبعد أن يلحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى، ويحمل أبو بكر الصديق مسئولية الخلافة، وتَهُبُّ أعاصير الردّة غادرة ماكرة، مطوقةً الدين الجديد بزئيرها المُصمّ وانتفاضها المُدَمْدِم.. يضع أبو بكر عينه لأول وهلة على بطل الموقف ورجل الساعة.. أبى سليمان، سيف الله، خالد بن الوليد..!!

وصحيح أن أبا بكر لم يبدأ معارك المرتدين إلا بجيش قاده هو بنفسه، ولكن ذلك لا يمنع أنه ادَّخر خالدًا ليوم الفصل، وأن خالدًا فى المعركة الفاصلة التى كانت أخطر معارك الردة جميعًا، كان رجلها الفذ وبطلها الملهم...

* * *

عندما بدأت جموع المرتدين تتهيأ لإنجاز مؤامراتها الضخمة، صمم الخليفة العظيم أبو بكر على أن يقود جيش المسلمين بنفسه. ووقف زعماء الصحابة يبذلون محاولات يائسة لصده عن هذا العزم، ولكنه ازداد تصميمًا.. ولعله بهذا أراد أن يعطى القضية التى دعا الناس لخوض الحرب من أجلها أهمية وقداسة، لا يؤكدها فى رأيه إلا اشتراكه الفعلى فى المعارك الضارية التى ستدور رحاها

بين قُوى الإيمان، وبين جيوش الردة والضلال، وإلا قيادته المباشرة لبعض أو لكل القوات الـمُسْلمة...

ولقد كانت انتفاضات الردة بالغة الخطورة، على الرغم من أنها بدأت وكأنها تمرُّدٌ عارض..

لقد وجد فيها جميعُ الموتورين من الإسلام والمتربصين به فرصتهم النادرة - سواء بين قبائل العرب - أم على الحدود، حيث يَجثُم سُلطان الروم والفرس، هذا السلطان الذى بدأ يحسُّ خطر الإسلام الأكبر عليه، فراح يدفع الفتنة فى طريقه من وراء ستار.. !!

ونشبت نيران الفتنة فى قبائل: أسَد، وغطفان، وعَبس، وطيئ وذبيان..

ثم فى قبائل: بنى عامر، وهَوَازِن، وسليم، وبنى تميم..

ولم تكد المناوشات تبدأ حتى استحالت إلى جيوش جرَّارة قوامُها عشرات الألوف من المقاتلين...

واستجاب للمؤامرة الرهيبة أهل البحرين، وعُمان، والمهرة، وواجه الإسلام أخطر محنة، واشتعلت الأرض من حول المسلمين نارًا...

ولكن، كان هناك أبو بكر..!![1]

عبَّأ أبو بكر المسلمين وقادهم إلى حيث كانت قبائل بنى عبس، وبنى مرة، وذبيان قد خرجوا فى جيش لَجِب..

ودار القتال، وتطاوَلَ، ثم كُتب للمسلمين نصر مُؤزَّرٌ وعظيم...

ولم يكد الجيش المنتصر يستقر بالمدينة. حتى ندبه الخليفة للمعركة التالية...

وكانت أنباء المرتدين وتجمعاتهم تزداد كل ساعة خطورة.. وخرج أبو بكر على رأس هذا الجيش الثانى، ولكن كبار الصحابة يفرغ صبرهم، ويجمعون على بقاء الخليفة بالمدينة، ويعترض «الإمام علىّ» طريق أبى بكر ويأخذ بزمام راحلته التى كان يركبها وهو ماض أمام جيشه الزاحف، فيقول له:

«إلى أين، يا خليفة رسُولِ الله..؟؟

«إنى أقول لك ما قاله رَسُول الله يوم أُحُد:

«لُمَّ سيفك يا أبا بكر، ولا تَفجَعْنا بنفسك..»

وأمام إجماع مُصمم من المسلمين، رضى الخليفة أن يبقى

---

(١) راجع صورة هذا الموقف المشهود فى كتابنا «وجاء أبو بكر».

بالمدينة وقسَّم الجيش إلى إحدى عشرة مجموعة.. رسم لكل مجموعة دورها...

وعلى مجموعة ضخمة من تلك المجموعات كان خالد بن الوليد أميرًا..

ولما عقد الخليفة لكل أمير لواءه، اتجه صوب «خالد» وقال يخاطبه:

«سمعتُ رَسُولَ الله يقول: نِعم عبدُ الله، وأخو العَشيرة، خالد بن الوليد، سَيفٌ مِنْ سُيوف الله، سَلَّه الله على الكُفار والمنافقين»..

* * *

ومضى خالد إلى سبيله ينتقل بجيشه من معركة إلى معركة، ومن نصر إلى نصر حتى كانت المعركة الفاصلة...

* * *

فهناك باليمامة كان بنو حنيفة ومن انحاز إليهم من القبائل، قد جيَّشوا أخطر جيوش الردة قاطبة، يقوده «مسيلمة الكذّاب»..

وكانت بعض القوات المسلمة قد جربت حظها مع جيش

مسيلمة، فلم تبلغ منه منالا..

وجاء أمر الخليفة إلى قائده «المظفّر» أنْ سرْ إلى بنى حنيفة.. وسار خالد..

ولم يكد «مسيلمة» يعلم أن ابن الوليد فى الطريق إليه حتى أعاد تنظيم جيشه، وجعل منه خطرًا حقيقيًّا، وخصمًا رهيبًا..

والتقى الجيشان..

وحين تُطالع فى كتب السيرة والتاريخ - سَيْرَ تلك المعركة الهائلة، تأخذك رهبة مُضْنية، إذ تجد نفسك أمام معركة تُشبه فى ضراوتها وجَبروتها معارك حروبنا الحديثة، وإنْ تخلَّفت عنها فى نوع السلاح وظروف القتال...

نزل خالد بجيشه على كَثِيب مُشْرِف على اليمامة، وأقبل مسيلمة فى خُيلائه وبغيه، صفوفُ جيشه من الكثرة كأنها لا تُؤْذِن بانتهاء !!

وسلم خالد الألوية والرايات لقادة جيشه، والتَحم الجيشان ودار قتال رهيب. ثم رهيب.. وسقط شهداء المسلمين تباعًا كزهور حديقة طوّحت بها عاصفة عنيدة..!!

وأبصر خالد رجحان كفَّة الأعداء، فاعتلى بجواده ربوة قريبة

وألقى على المعركة نظرة سريعة، ذكية وعميقة..

ومِنْ فَوْرِه أدرك نقاط الضعف فى جيشه وأحصاها..

رأى الشعور بالمسئولية قد وَهَنَ تحت وقع المفاجأة التى دهمهم بها جيش مسيلمة، فقرر فى نفس اللحظة أن يشدَّ فى أفئدة المسلمين جميعًا زناد المسئولية إلى أقصاه.. فمضى ينادى إليه فيالق جيشه وأجنحته، وأعاد تنسيق مواقعه على أرض المعركة، ثم صاح بصوته المنتصر:

«امْتازُوا، لِنرى اليومَ بلاءَ كُلِّ حىّ».

وامْتازُوا جميعًا..

مضى المهاجرون تحت رايتهم، والأنصار تحت رايتهم «وكُلُّ بنى أبٍ على رايتهم»..

وهكذا صار واضحًا تمامًا، من أين تجىء الهزيمة حين تجىء.. واشتعلت الأنفس حماسة، واتَّقدَتْ مضاءً، وامتلأت عزمًا وروعة..

و «خالد» بين الحين والحين، يرسل تكبيرة أو تهليلة، أو صيحة يلقى بها أمرًا، فتتحول سيوف جيشه إلى مقادير لا رَادَّ لأمرها، ولا مُعوِّق لغاياتها..

وفى دقائق معدودة تحوَّل اتجاه المعركة وراح جُنود مسيلمة

يتساقطون بالعشرات، فالمئات، فالألوف، كذباب خَنقتْ أنفاس الحياة فيه نَفثاتُ مُطَهر صاعق مُبيد..!!

لقد نقل «خالد» حماسته كالكهرباء إلى جنوده، وحلَّت رُوحه في جَيشه جميعًا.. وتلك كانت إحدى خصال عبقريته الباهرة..

وهكذا سارت أخطر معارك الردة وأعنف حروبها، وقُتِلَ «مسيلمة»..

وملأت جُثث رجاله وجَيشه أرض القتال، وطويت تحت التراب إلى الأبد راية الدّعيِّ الكذاب..

* * *

وفى المدينة صلَّى الخليفة لربه الكبير المتعال صلاة الشكر، إذْ منحهم هذا النصر، وهذا البطل...

وكان أبو بكر قد أدرك بفطنته وبصيرته ما لِقُوَى الشر الجاثمة وراء حدود بلاده من دور خطير فى تهديد مصير الإسلام وأهله.. الفرس فى العراق.. والروم فى بلاد الشام...

إمبراطوريتان خَرِعَتان، تتشبثان بخيوط واهنة من حظوظها الغاربة وتَسومان الناس فى العراق وفى الشام سوء العذاب، بل وتسخرهم - وأكثرهم عَرب - لقتال المسلمين العرَب الذين

يحملون راية الدين الجديد، ويضربون بمعاوله قلاع العالم القديم كله، ويجتثّون عفَنه وفساده..!

هنالك، أرسل الخليفة العظيم الـمُبارك توجيهاته إلى «خالد» أن يمضى بجيشه صَوْب العراق..

ويمضى البطل إلى العراق، وليت هذه الصفحات كانت تتسع لِتَتَبُّع مواكب نصره. إذن لرأينا من أمرها عجبًا.

لقد استهلَّ عمله فى العراق بكُتب أرسلها إلى جميع وُلاة كسرى ونوابه على ألوية العراق ومدائنه...

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من خالد بن الوليد.. إلى مرازبة فارس..

«سلام على من اتَّبعَ الهُدى

«أما بعد، فالحمد لله الذى فضّ خدمَكم، وسلب مُلككُم، ووهَّن كَيْدَكُم

«مَن صَلَّى صلاتَنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا

«إذا جاءكم كتابى فابعثوا إلىَّ بالرُّهُن واعتقدوا منى الذمَّة

«وإلاّ، فوالذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة».. !!!

وجاءته طلائعه التى بثَّها فى كل مكان بأنباء الزُّحوف الكثيرة التى يُعدها له قواد الفرس فى العراق، فلم يضيِّع وقته، وراح يقذف بجنوده على الباطل لِيدْمغَه.. وطويت له الأرض طيًّا عجيبًا.

فى الأبُلَّة ، إلى السّدير، فالنّجف، إلى الحيرة، فالأنبار، فالكاظمية. مواكب نصر تتبعها مواكب.. وفى كل مكان تُهلُّ به رياحُه البُشريات ترتفع للإسلام راية يأوى إلى فَيْئِها الضعفاء والمستَعبدون.

أجل، الضعفاء والمستعبدون من أهل البلد الذين كان الفرس يستعمرونهم ويسومونهم العذاب..

وكم كان رائعًا من خالد أن بدأ زحفه بأمر أصدره إلى جميع قواته:

«لا تتعرضوا للفلاحين بسوء، دعوهم فى شغلهم آمنين، إلاَّ أن يخرج بعضهم لقتالكم، فآنئذ قاتلوا المقاتلين».

وسار بجيشه الظافر كالسكين فى الزبد الطرِىّ حتى وقف على تُخوم الشام...

وهناك دوَّت أصوات المؤذنين، وتكبيرات الفاتحين.

تُرى هل سمع الروم فى الشام..؟؟

وهل تبينوا فى هذه التكبيرات نَعْىَ أيامهم، وعالمهم..؟؟

أجل، سمعوا.. وفُزِّعوا.. وقرروا أن يخوضوا فى جنون معركة اليأس والضياع..!

* * *

كان النصر الذى أحرزه الإسلام على الفرس فى العراق بشيرًا بنصر مثله على الروم فى الشام..

فجنَّد الصديق أبو بكر جيوشًا عديدة، واختار لإمارتها نفرًا من القادة المهرة - أبو عبيدة بن الجراح.. وعمرو بن العاص.. ويزيد بن أبى سفيان، ثم معاوية بن أبى سفيان..

وعندما نمت أخبار هذه الجيوش إلى إمبراطور الروم نصح وزراءه وقواده بمصالحة المسلمين، وعدم الدخول معهم فى حرب خاسرة..

بيد أن وزراءه وقواده أصَرُّوا على القتال وقالوا:

«والله لَنَشْغَلَنَّ أبا بكر عن أن يُورِدَ خيله إلى أرضنا»..

وأعدوا للقتال جيشًا بلغ قوامه مائتى ألف مقاتل، وأربعين ألفا.

وأرسل قادة المسلمين إلى الخليفة بالصورة الرهيبة للموقف فقال أبو بكر:

«والله لأشْفِيَنَّ وَسَاوِسَهم بخالد»..!!!

وتلقى «تِرياقُ الوساوس».. وساوس التمرد والعدوان والشرك، تلقَّى أمر الخليفة بالزحف إلى الشام، ليكون أميرًا على جيوش الإسلام التى سبقته إليها...

وما أسرع ما امتثل خالد وأطاع، فترك على العراق «المُثنَّى ابن حارثة» وسار مع قواته التى اختارها حتى وصل مواقع المسلمين بأرض الشام، وأنجز بعبقريته الباهرة تنظيم الجيش المسلم وتنسيق مواقعه فى وقت وجيز، وبين يدى المعركة واللقاء، وقف فى المقاتلين خطيبًا فقال بعد أن حَمِد ربه وأثنى عليه:

«إن هذا يومٌ من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى...

«أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وتعالوا نَتعَاور الإمارة - أى نتبادلُها - فيكُون أحدنا اليوم أميرًا، والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى يتأمَّر كلكم»..

* هذا يومٌ من أيام الله...

ماأروعها من بداية...!!

* لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى...

وهذه أكثر روعة وأوفى ورَعًا!!

ولم تنقص القائد العظيم الفِطْنة المفعمة بالإيثار، فعلى الرغم من أن الخليفة وضعه على رأس الجيش بكل أمرائه، فإنه لم يشأ أن يكون عَوْنًا للشيطان على أنفس أصحابه، فتنازل لهم عن حقه الدائم فى الإمارة وجعلها دُولةً بينهم جميعًا...

اليوم أمير.. وغدًا أمير ثان.. وبعد غد أمير آخر.. وهكذا... كان جيش الروم بأعداده وبعتاده، شيئًا بالغ الرهبة..

لقد أدرك قواد الروم أن الزمن فى صالح المسلمين، وأن تطاوُل القتال وتكاثُر المعارك يهيئان لهم النصر دائمًا، من أجل ذلك قرروا أن يحشدوا كل قواهم فى معركة واحدة يُجهزون خلالها على العرب حيث لا يبقى لهم بعدها وجود، وما من شك فى أن

المسلمين أحسُّوا يوم ذاك من الرهبة والخطر ما ملأ نفوسهم المقدامة قلقًا وخوفًا..

ولكن إيمانهم كان يَخفّ لخدمتهم فى مثل تلك الظلمات الحالكات؛ فإذا فَجْرُ الأمل والنصر يغمرهم بسنَاه..!!

ومهما يكن بأس الروم وجيوشهم، فقد قال أبو بكر، وهو بالرجال جِدُّ خبير:

«خالد لها»..!!!

وقال:

«والله، لأشفِيَنَّ وسَاوسهم بخالد».

فليأت الروم بكل هوْلِهم، فمع المسلمين الترياق..!!

عبَّأ ابن الوليد جيشه، وقسمه إلى فيالق، ووضع للهجوم والدفاع خُطة جديدة تتناسب مع طريقة الروم بعد أن خبر وسائل إخوانهم الفرس فى العراق.. ورسم للمعركة كل مقاديرها..

ومِنْ عجب أن المعركة دارت كما رسم خالد وتوقَّع، خُطوة خُطوة وحركة حركة، حتى ليبدو وكأنه لو تنبأ بعدد ضربات السيوف فى المعركة، لما أخطأ التقدير والحساب..!!

كل مُناورة توقعها من الروم صنعوها..

كل انسحاب تنبأ به فعلوه..

وقبل أن يخوض القتال كان يشغل باله قليلا، احتمالُ قيام بعض جنود جيشه بالفرار - خاصَّةً أولئك الذين هم حديثو العهد بالإسلام - بعد أن رأى ما ألقاه منظر جيش الروم من رهبة وجزع..

وكان خالد يتمثَّل عبقرية النصر فى شىء واحد، هو «الثبات»..

وكان يرى أن حركة هروب يقوم بها اثنان أو ثلاثة، يمكن أن تشيع فى الجيش من الهلع والتمزُّق ما لا يقدر عليه جيش العدو بأسره...

من أجل هذا، كان صارمًا - أىَّ صارم - تجاه الذى يلقى سلاحه ويولى هاربًا..

وفى تلك الموقعة بالذات - موقعة اليرموك - وبعد أن أخذ جيشه مواقعه - دعا نساء المسلمين - ولأول مرة سلَّمهن السيوف، وأمرهن؛ بالوقوف وراء صفوف المسلمين من كل جانب، وقال لهن:

«مَنْ يُوَلى هاربًا، فاقْتُلْنَه»..

وكانت لفتة بارعة أدت مهمتها على أحسن وجه..!!

وقُبيل بدء القتال طلب قائد الروم أن يبرز إليه خالد ليقول له بضع كلمات..

وبرز إليه خالد، حيث تواجها فوق جواديهما فى الفراغ الفاصل بين الجيشين..

وقال «ماهان» قائد الروم يخاطب خالدًا:

«قد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع..

«فإن شئتم، أعطيت كُل واحد منكم عشرة دنانير، وكسوة، وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم، وفى العام القادم أبعث إليكم بمثلها»..!!

وضغط خالد الرجل والبطل على أسنانه، وأدرك ما فى كلمات قائد الروم من سوء الأدب..

وقرر أن يرد عليه بجواب مناسب، فقال له:

«إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت، ولكننا قوم

نشرب الدماء، وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك»...!!!

ولَوَى البطل زمام جواده عائدًا إلى صفوف جيشه. ورفع اللواء عاليًا مُؤذنًا بالقتال..

«الله أكبر»..

«هُبىِّ رياح الجنة»..

كان جيشه يندفع كالقذيفة المصبوبة.

ودار قتال ليس لضراوته نظير..

وأقبل الروم فى فيالق كالجبال..

وبدا لهم من المسلمين ما لم يكونوا يحتسبون..

ورسم المسلمون صُورًا تبهر الألباب من فدائيتهم وثباتهم..

* فهذا أحدهم يقترب من أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه والقتال دائر، ويقول:

«إنى قد عزمتُ على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أُبلغها له حين ألقاهُ»؟؟

فيجيب أبو عبيدة:

«نعم.. قل له: يارسول الله إنا قد وَجَدنا ما وَعَدنا ربنا حقًّا».

ويندفع الرجل كالسهم المقذوف... يندفع وسط الهول مشتاقًا إلى مصرعه ومضجعه... يَضرب بسيفه، ويُضرب بآلاف السيوف حتى يرتفع شهيدًا...!!

* وهذا «عِكْرمة بن أبي جهل»..

أجل.. ابن أبي جهل..

ينادى فى المسلمين حين ثَقُلَتْ وطأة الروم عليهم قائلا

«لطالما قاتلْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يهدينى الله إلى الإسلام، أَفأَفِرُّ من أعداء الله اليوم»؟؟

ثم يصيح: «من يُبايعُ على الموت»...

فبايعه على الموت كوكبة من المسلمين - ثم ينطلقون معًا إلى قلب المعركة لا باحثين عن النصر، بل عن الشهادة... ويتقبل الله بَيْعَهم وبَيْعَتهم، فيستشهدون..!!

* وهؤلاء آخرون أصيبوا بجراح أليمة، وجيء لهم بماء

يبللون به أفواههم، فلما قدم الماء إلى أولهم، أشار للساقى أنْ أعط أخى الذى بجوارى فجُرحُه أخطر، وظمؤه أشدُّ.. فلمَّا قدم الماء إليه، أشار بدوره لجاره . فلمَّا انتقل إليه أشار بدوره لجاره..

وهكذا .. حتى جادت أرواح أكثرهم ظامئة.. ولكن أنضر ما تكون تفانيًا وإيثارًا..!!

أجل..

لقد كانت معركة «اليرموك» مجالا لفدائية يعزُّ نظيرها.

* ومن بين لوحات الفداء الباهرة التى رسمتهَا عَزَمَات مُقْتدرة، تلك اللوحة الفذة... لوحة تحمل صورة خالد بن الوليد على رأس مائة لا غير من جنده، ينقضون على ميسرة الروم وعددها أربعون ألف جندى، وخالد يصيح فى المائة الذين معه:

«والذى نفسى بيده ما بقى مع الروم من الصبر والجلَد إلا ما رأيتم

«وإنى لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم»..

مائة.. يخوضون فى أربعين ألف.. ثم ينتصرون..!!

ولكن أى عجب؟؟

أليس ملء قلوبهم إيمان بالله العلى الكبير..؟؟

وإيمان برسوله الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم؟

وإيمانٌ بقضية، هى أكثر قضايا الحياة برًّا، وهُدًى، ونبلا؟

وأليس خليفتهم «الصِّديق» رضى الله عنه، هذا الذى ترتفع راياته فوق الدنيا، بينما هو فى المدينة - العاصمة الجديدة للعالم الجديد - يحلُبُ بيده شِياهَ الأيَامَى، ويعجن بيديه خبز اليتامى..؟؟

وأليْس قائدهم «خالد بن الوليد» ترياق وساوس التجبر، والصَّلَف، والبغى، والعدوان، وسيف الله المسلول على قوى التخلُّف ، والتعفن، والشِّرْك؟؟

أليس ذلك، كذلك..؟

إذن، هُبىٌّ رياح النصر...

هُبِّى قوية عزيزة، ظافرة، قاهرة..

* * *

لقد بهرت عبقرية «خالد» قواد الروم وأمراء جيشهم، مما حمل أحدهم، واسمه «جرجه» على أن يدعو خالدًا للبروز

إليه فى إحدى فترات الراحة بين القتال.

وحين يلتقيان، يوجه القائد الرومانى حديثه إلى خالد قائلا:

«يا خالد..

اصدقنى، ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب..

«هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاك إياه، فلا تَسُلّه على أحد إلا هزمته»؟؟

قال خالد:

«لا...».

قال الرجل:

«فبمَ سُمِّيتَ سيف الله»؟

قال خالد:

«إن الله بعثَ فينَا رسوله، فمنا من صدَّقه ومنا من كذَّب... وكنت فيمن كذَّب حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله فبايعناه..

«فدعا لى الرسول، وقال لى: أنت سيف من سيوف الله، فهكذا سُمِّيت.. سيف الله».

قال القائد الرومانى:

«وإلام تَدْعُون»..؟

قال خالد:

«إلى توحيد الله، وإلى الإسلام»..

قال:

«هل لمن يدخل فى الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر»؟

قال خالد: «نعم، وأفضل...»

قال الرجل: «كيف، وقد سبقتموه»..؟؟

قال خالد:

«لقد عشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأينا آياته ومعجزاته وحقّ لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يُسلم فى يُسْر..

«أما أنتم يا مَنْ لم ترَوْه ولم تسمعوه، ثم آمنتم بالغيب، فإن أجْركم أجزل وأكبر إذا صَدَقْتُم الله سرائركم ونواياكم».

وصاح القائد الرومانى، وقد دفع جواده إلى ناحية خالد، ووقف بجواره:

«علمنى الإسلام يا خالد»..!!!

وأسلم .. وصلى لله ركعتين.. لم يُصَل سواهما، فقد استأنف الجيشان القتال.. وقاتل «جرجه الرومانى» فى صفوف المسلمين مستميتًا فى طلب الشهادة حتى نالها وظفر بها..!!

* * *

وبعد. فها نحن أولاء نواجه العظمة الإنسانية فى مشهد من أبْهَى مشاهدها.. إذ كان خالد يقود جيش المسلمين فى هذه المعركة الضارية، ويستلُّ النصر من بين أنياب الروم استلالاً فذًّا، بقدر ما هو مُضْنٍ ورهيب - وإذا به يفاجأ بالبريد القادم من المدينة يحمل كتاب الخليفة الجديد - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.. وفيه تحية الفاروق للجيش المسلم، ونَعْيُه خليفةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه، ثم أمره بتنحية خالد عن القيادة، وتولية «أبى عبيدة بن الجرَّاح» مكانه..

قرأ «خالد» الكتاب، وهمهم بابتهالات الترحُّم على أبى بكر والتوفيق لعمر..

ثم طلب من حامل الكتاب ألاّ يبوح لأحد بما فيه وألْزَمَهُ مكانًا أمره ألا يغادره، وألا يتصل بأحد.

استأنف قيادته للمعركة مُخْفيًا موت أبي بكر وأوامر عمر حتى يتحقق النصر الذى بات وشيكًا وقريبًا..

ودقَّت ساعة الظَّفَر، واندحر الروم..

وتقدم البطل من أبى عبيدة مؤديًا إليه تحية الجندى لقائده.. وظنها «أبو عبيدة» فى أول الأمر دعابَةً من دعابات القائد الذى حقق نصرًا لم يكن فى الحسبان.. بيد أنه ما فتئ أن رآها حقيقة وجدًّا، فقبل خالدًا بين عينيه، وراح يُطْرى عظمة نفسه وسجاياه..

وثمَّت رواية تاريخية أخرى، تقول: إن الكتاب أرسل من أمير المؤمنين عمر إلى أبى عبيدة، وكتم أبو عبيدة النبأ عن خالد حتى انتهت المعركة...

وسواء كان هذا الأمر أو ذاك، فإن مَسْلَك خالد فى كلتا الحالتين هو الذى يعنينا.. ولقد كان مسلكًا بالغ الروعة والعظمة والجلال..

ولا أعرف فى حياة «خالد» كلها موقفًا ينبئ بإخلاصه

العميق وصدقه الوثيق، مثل هذا الموقف..

فسواء عليه أن يكون أميرًا، أو جنديًّا..

إن الإمارة كالجندية، كلاهما سبب يؤدى به واجبه نحو الله الذى آمن به، ونحو الرسول الذى بايعه، ونحو الدين الذى اعتنقه وسار تحت رايته..

وجهده المبذول وهو أمير مُطَاع... كجهده المبذول وهو جندى مُطِيع..!!

ولقد هيأ له هذا الانتصار العظيم على النفس، كما هَيَّأه لغيره، طراز الخلفاء الذين كانوا على رأس الأمة المسلمة والدولة المسلمة يوم ذاك ..

أبو بكر وعمر..

اسمان لا يكاد يتحرك بهما لسان، حتى يخطر على البال كل مُعجزٍ من فضائل الإنسان، وعظمة الإنسان..

وعلى الرغم من الوُدِّ الذى كان مفقودًا - أحيانًا - بين عمر وخالد، فإن نزاهة عمر، وعدله، وورعه، وعظَمته الخارقة، لم تكن قط موضع تَسَاؤل لَدى خالد..

ومن ثم لم تكن قراراته موضع شك؛ لأن الضمير الذى يُمْليها ،

قد بلغ من الورَع، ومن الاستقامة، ومن الإخلاص والصدق أقصى ما يبلغه ضمير مُنَزَّهٌ ورشيد.

* * *

لم يكن أمير المؤمنين عمر يأخذ على خالد مِنْ سُوء، ولكنه كان يأخذ على سيفه التسرُّع، والحِدَّة..

ولقد عبَّر عن هذا حين اقترح على أبى بكر عزله إثْرَ مقتل مالك بن نويرة، فقال:

«إن فى سيف خالد رَهقًا».

أى خِفَّةً، وحِدَّةً، وتَسَرُّعًا..

فأجابه الخليفة الصدِّيق:

«ما كنت لِأشيمَ سيفًا سَلَّهُ الله على الكافرين»..

لم يقل «عمر» إن فى خالد رهَقًا.. بل جعل الرهق صفة لسيفه لا لشخصه، وهى كلمات لا تنمّ عن أدب أمير المؤمنين فحسب، بل وعن تقديره لخالد أيضًا..

و«خالد» رجل حرب من المهد إلى اللَّحد..

فبيئته، ونشأته، وتربيته، وحياته كلها - قبل الإسلام وبعده -

كانت كلها وِعَاءً لفارس، مُخَاطر، داهية..

ثم إن إلحاح ماضيه قبل الإسلام، والحروب التى خاضها ضد الرسول وأصحابه - والضربات التى أسقط بها سيفه أيام الشرك رءوسًا مؤمنة، وجباهًا عابدة - كل هذا كان له على ضميره ثِقَل مُبْهِظ، جعل سيفه تَوَّاقًا إلى أن يُطَوِّح من دعامات الشرك أضعاف أضعاف ما طوَّح من حَمَلة الإسلام..

وإنكم لتذكرون العبارة التى أوردناها أوَّل هذا الحديث والتى جاءت فى سياق حديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له:

«يا رسول الله..

استغفر لى كُلَّ ما أوْضَعْتُ فيه من صَدٍّ عن سبيل الله»..

وعلى الرغم من إنْباء الرسول صلى الله عليه وسلم إياه، بأن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله، فإنه ظل يتوسَّل على الظفر بعهد من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله له فيما صَنَعَتْ من قبلُ يداه..

والسيف حين يكون فى يد فارس خَارِق كخالد بن الوليد، ثم

يحرك اليدَ القابضة عليه ضمير مُتَوَهج بحرارة التطهُّر والتعويض، ومُفعمٌ بولاءٍ مطلق لدين تُحيط به المؤامرات والعداوات، فإن من الصعب على هذا السيف أن يتخلى عن مبادئه الصارمة، وحدَّته الخاطفة..

وهكذا رأينا سيف خالد يُسبّب لصاحبه المتاعب.

فحين أرسله النبى عليه السلام بعد الفتح إلى بعض قبائل العرب القريبة من مكة، وقال له:

«إنى أبعثك داعيًا، لا مقاتلا»..

غلَبه سيفُه على أمره ودفعَه إلى دَوْر المقاتل.. متخليًا عن دور الداعى الذى أوصاه به الرسول مما جعله عليه السلام ينتفض جزَعًا وألمًا حين بلغه صنيع خالد. وقام مستقبلا القبلة، رافعًا يديه، معتذرًا إلى الله بقوله:

«اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد».

ثم أرسل عليًا فوَدَى لهم دماءهم وأموالهم.

وقيل إن خالدًا اعتذر عن نفسه بأن عبد الله بن حُذافة السَّهمى قال له: إن رسول الله قد أمرك بقتالهم لامتناعهم عن الإسلام..

كان خالد يحمل طاقة غير عادية.. وكان يَستبدُّ به تَوْقٌ عارم إلى هدم عالَمه القديم كله..

ولو أننا نبصره وهو يهدم صَنَم «العُزَّى» الذى أرسله النبى لهدمه.

لو أننا نبصره وهو يدمدم بمعوله على هذه البناية الحجرية، لأبْصَرنا رجلا يبدو كأنه يقاتل جيشًا بأسره، يُطوِّح رءوس أفراده ويُتبر بالمنايا صفوفه.

فهو يضرب بيمينه، وبشماله، وبقدمه، ويصيح فى الشظايا المتناثرة، والتراب المتساقط:

«يا عُزَّى كفرانك، لا سُبْحانَك
إنى رأيتُ الله قد أهانَك»..!!

ثم يحرقها ويشعل النار فى ترابها..!

كانت كل مظاهر الشّرك وبقاياه فى نظر خالد - كالعُزَّى لا مكان لها فى العالم الجديد الذى وقف خالد تحت أعلامه..

ولا يعرف خالد أداةً لتصفيتها إلا سيفه..

وإلاَّ.. «كُفرانك، لا سُبْحانك..

إنى رأيتُ الله قد أهانك»...!!

* * *

على أنا إذ نتمنَّى مع أمير المؤمنين عمر. لو خلا سيف خالد من هذا الرَّهَق؛ فإننا سنظلُّ نردد مع أمير المؤمنين عمر - قوله:

«عجزَت النساء أن يَلدْن مثلَ خالد»..!!

لقد بكاه عمر يوم مات بُكاءً كثيرًا، وعلم الناس فيما بعد أنه لم يكن يبكى فَقده فحسب، بل ويبكى فرصة أضاعها الموت من عمر إذ كان يعتزم ردّ الإمارة إلى خالد بعد أن زال افتتان الناس به، ومُحّصَتْ أسباب عزله، لولا أن تداركهُ الموت وسارع خالد إلى لقاء ربه.

نعم، سارَع البَطل العظيم إلى مَثْوَاه فى الجنة..

أما آن له أن يستريح..؟؟ هو الذى لم تَشْهد الأرض عدوًّا للراحة مثله..؟؟

أما آن لجسده المجهد أن ينام قليلا..؟؟ هو الذى كان يصفه أصحابه وأعداؤه بأنه:

«الرجل الذى لا ينام، ولا يترك أحدًا ينام»..؟؟

أمَّا هو ، فلو خُيِّر لاختار أن يمدَّ الله له فى عمره مزيدًا من الوقت يواصل فيه هدم البقايا المتعفنة القديمة، ويُتابع عمله وجهاده فى سبيل الله والإسلام...

إن رَوْحَ هذا الرجل ورَيْحانَه ليوجدان دائمًا وأبدًا، حيث تصهل الخيل، وتلتمع الأسنَّة، وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة..

وإنه ليقول:

«ما لَيلَةٌ يُهْدَى إلىَّ فيها عَرُوس، أو أُبَشَّر فيها بوليد، بأحبَّ إلىَّ من ليلة شديدة الجليد، فى سَرِيَّة من المهاجرين، أُصَبِّح بهم المشركين»..

من أجل ذلك ، كانت مأساة حياته – فى رأيه – أن يموت على فراشه؛ وهو الذى قضى حياته كلها فوق ظهر جواده، وتحت بريق سيفه..

هو الذى غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقهر أصحاب الرِّدَّة، وسوَّى بالتراب عرشى فارس والروم، وقطع الأرض وثبًا، فى العراق خطوة خطوة، حتى فتحها كلها للإسلام...

أميرًا، يحمل شظف الجندىّ وتواضعه.. وجنديًّا، يحمل مسئولية الأمير وقُدْوَته.

كانت مأساة حياة البطل أن يموت البطل على فراشه..!!

هنالك قال ودموعه تنثال من عينيه:

«لقد شهدتُ كذا، وكذا زحفًا، وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف، أو طعنة رُمح، أو رَمْيَةُ سهم..

«ثم هأنذا أموتُ على فراشى حَتْفَ أنفى كما يموت البعير، فلَا نَامَتْ أعْيُنُ الجُبَناء»..!!

كلمات لا يجيد النطق بها فى مثل هذا الموطن، إلا مثل هذا الرجل.

وحين كان يستقبل لحظات الرحيل، شرع يُمْلى وصيَّتَه..

أتدرون إلى مَن أوْصى..؟؟

إلى عمر بن الخطاب ذاته..!!

أتدرون ماذا كانت تركتُه..؟

فرسَه وسلاحَه..!!

ثم ماذا..؟؟

لاشيء قط ، مما يقتنى الناس ويمتلكون..!!

ذلك أنه لم يكن يستحوذ عليه وهو حى، سوى اقتناء النصر وامتلاك الظفر على أعداء الحق.

وما كان فى متاع الدنيا جميعه ما يستحوذ على حرصه..

شيء واحد، كان يحرص عليه فى شغف واستماتة.. تلك هى «قَلَنْسُوَتُه»..

سقطت منه يوم اليرموك. فأضْنَى نفسه والناس فى البحث عنها.. فلما عُوتِب فى ذلك قال:

«إن فيها بعضًا من شَعر ناصية رسول الله وإنى أتفاءل بها، وأستَنْصِر»..

* * *

وأخيرًا، خرج جثمان البطل من داره محمولاً على أعناق أصحابه ورمَقَتْه أم البطل الراحل بعينين اختلط فيهما بريق العزم بغاشِيَة الحزن فقالت تودعه:

أنت خير من ألفِ ألف من القو م إذا ما كَبَتْ وجوه الرجال
أشجاعٌ..؟ فأنت أشجع من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَر يَذُودُ عن أشبال
أجوادٌ..؟ فأنت أجود من سَيل غامر يسيلُ بين الجبال

وسمعها «عمر» فازداد قلبه خَفْقًا.. ودمعُه دَفْقًا.. وقال:

«صدقَتْ..

والله إنْ كان لكذلك».

وثوَى البطل فى مَرْقَدِه..

ووقف أصحابه فى خشوع، والدنيا من حولهم هاجعة، خاشعة، صامتة..

لم يقطع الصمت المهيب سوى صهيل فرس جاءت - كما نتخيلها - تركُض بعد أن خلَعت رَسَنَها، وقطعت شوارع المدينة وثبًا وراء جثمان صاحبها، يقودها عَبيرُه وأريجُه.

وإذ بلغت الجمع الصامت والقبر الرطب لوّحت برأسها كالراية. وصَهيلها يصدح.. تمامًا مثلما كانت تصنع والبطل فوق ظهرها، يهدُّ عروش فارس والروم، ويشفى وساوس الوثنية والبغى، ويزيح من طريق الإسلام كل قُوى التقهقر والشرك..

وراحت - وعيناها على القبر لا تزيغان - تعلو برأسها وتهبط، مُلوِّحةً لسيدها وبطلها، مُؤدية له تحية الوداع..!!

ثم وقفت ساكنة - ورأسُها مرتفع.. وجبهتها عالية.. ولكن من مآقيها تسيل دموع غِزار وكبار..!!

لقد وقفها «خالد» مع سلاحه فى سبيل الله.

ولكن.. هل سيقدر فارس على أن يمتطى صهوتها بعد خالد..؟؟

وهل ستُذَلّل ظهرها لأحد سواه..؟؟

إيه يا بطل كل نَصر..

ويا فَجْرَ كُل ليل..

لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزحف بقولك لجندك:

«عند الصَّباح يحمد القوم السُّرى».

حتى ذهبَتْ عنك مثَلا..

وهأنتذا، قد أَتْمَتَ -مسْراك..

فلصباحك الحمد، أبا سليمان..!!

ولذكراك المجدُ، والعِطْر، والخُلد، يا خالد..!!

ودَعْنا.. نُردِّد مع أمير المؤمنين عمر كلماتِه العِذاب الرِّطاب التى ودَّعَك بها ورثاك:

* رَحِمَ الله أبا سليمان *
* ما عِنْدَ الله خَيرٌ مما كان فيه *
* ولقد عاش حَميدًا *
* ومات سعيدًا *